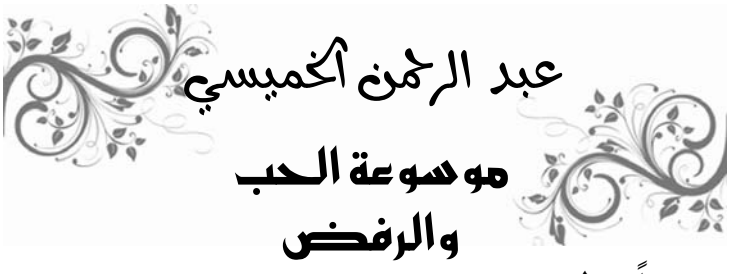

عبد الرحمن الخميسي

موسوعة الحب والرفض

كتب يوماً يقول:

ـ لم أعزف ألحاني.. ولكني دافعت عن قيثارتي.

وكانت قيثارته متعددة الألحان.. فهى تضم الشعر.. والمسرح.. والأغنية.. والقصة.. والصحافة والتمثيل.. وغيرها.

ولهذا كان شخصيته فريدة تقترب من الموسوعة.. لكنه بقدر ما كان عاشقاً لفنه.. كان رافضاً لواقع يحيط به.. متمرداً عليه بكل وسائل التمرد.. فتحمل الغربة والنفي عن وطنه.. وأخذ يجول فى عواصم عربية وعالمية من أجل صفاء الكلمة.. وصدق الموقف.

لقد ولد عبد الرحمن الخميسي فى الثالث عشر من نوفمبر عام 1920 فى مدينة بور سعيد الجميلة.. التى تطل على البحر المتوسط وقناة السويس.. وبهذا تفتحت عيناه على موج البحر الثائر على الشط الصخري.

وينتقل الفتى وهو صغير إلى مدينة المنصورة.. حيث النيل الجميل الذى يضم المدينة بحنان وحب على ضفتيه.

وظهرت موهبة الشعر عليه وهو صغير.. وأخذ ينشر قصائده هنا وهناك حتى استطاع أن ينشرها فى مجلتي الرسالة والثقافة.

نزح إلى القاهرة فى عام 1936 حيث تعرف على شاعر القطرين خليل مطران وتعلم على يده الكثير.. وكان الشاعر معجباً بالخميسي وطموحاته الفنية.

أخذ الخميسي يجوب قرى مصر مع مسرح شعبي يشارك فى وضع

نصوصه وأغانيه إلى جانب قيامه بالتمثيل كذلك.

لكنه فى القاهرة كان يعانى الحياة.. حيث عاش مع الفئات الشعبية الفقيرة فترة من الزمن.. وتعرف على قسوة العيش التى تعانيها تلك الفئات.. وربما كانت هذه المعايشة سبباً فى انحيازه إلى هذه الطبقة الكادحة فى المجتمع.

وينتمي الخميسي إلى صفوف المعارضة للسلطة.. مطالباً بحقوق الفقراء والبسطاء من الشعب.. فيقبض عليه.. ويتغرب.. ويرضى بنفيه عن وطنه سنوات طويلة من عمره.

والخميسي فى أثناء وجوده فى وطنه عمل أعمالاً مختلفة.. فقد قام بالتدريس.. وعمل فى محل بقاله.. ومحصلا فى الترام.. ومصححا فى مطبعة.. وفى أثناء كل هذه الأعمال كان يمارس هوايته فى الصحافة والأدب.

وللخميسي سبعة دواوين منها: أشواق إنسان ـ دموع ونيران ـ إنى أرفض ـ مصر الحب والثورة.

وله ترجمات عن الأدب الأجنبي.. كما كتب المسرح والأغنية.

وكانت معارضته للسلطة فى أعقاب اتفاقية كامب ديفيد.. ورضي بالتغرب من وطنه.. حتى توفي فى إبريل 1987 ودفن فى المنصورة..

ويعبر الخميسي عن حسّه الثورى فى قوله:

ماذا تريد الزعزع النكباءُ

من راسخ أكتافه شماءُ

تتكسر الأحداث تحت يمينه

وتميد من صرخاته الغبراءُ

ويمــزق الظلــمات عــن فجــر لــه

فيــه حــــياة عــــذبة ورجــاءُ

وبأصــــغريه الثــــورة الهوجــاء

تنهــار فــى تيارهــا البرحــاءُ

الــشوك يــاكم داســه مــستهزئا

ومــشى تزمجــر فوقــه الأنــواءُ

والنــار يعبرهــا فتــسكن روحــه

لكنهــا فــى روحــه أنــداءُ

والــصعب تمحقــه خطــاه ولاتنــى

تجتــازه .. مــا مــسّه إعيــاءُ

وهكذا.. وكأنه يضع صفات الثائر الحق.. فهو لا يقنع بالرفاهة والدعة وإنما هو يمتلك الصبر والتحمل ويعاني قسوة الحياة ويبتسم.. ويكافح وهو يحلم بالمزيد.. ويدوس الشوك دون أن يتململ.. حتى حينما يعذب بالنار.. فإن النار تسكن روحه وتحتال إلى أنداء.

وها هو يختتم هذه القصيدة (ثورة) بقوله:

أنــى خلقــت لكــى أعــيش وينحنــى

مــن حــولى الإصــباح والامــساءُ

تتجــدد الرغبــات فى نفــسي كــما

تتجــــدد الأكــــوان والأحيــاءُ

أنـــا ذلـــك الجبـــار لا تعنـــوا لـــه

إلا المـــصائب والمنـــى القعـــساءُ

وبالرغم من أن ذلك الشعر يذكرنا بـالفخر المغـالى فيـه لـدى شـعرائنا العرب القدامي.. فإن الخميسي هنا يريد أن يؤكد عدم استسلامه لأى قهـر وعدم انحنائه لأية سلطة مهما كانت هذه السلطة.. ومهـما كانـت المـصائب التى تصيبه.

ويتغرب الخميسي سنوات طويلة هائماً على وجهه بين عواصم العـالم.. منفياً عن أحضان بلده.. فيترجم ذلك فى قوله:

كسروا يراعى ولكنى
حفرت على جدران مصر أناشيدى
بأظفاري
دمى هنالك مكتوبٌ
وإن طمسوا حروفه
أجّ فى الظلماء كالنار
وحيث هم صلبونا كلما بزغت
شمس....
رأى الناس فيها لون شعارى

إن سلاحه قلمه.. فهو لا يملك غيره.. وحينما يكسر هذا الـسلاح.. لا يستسلم الشاعر.. بل يجعل من أظفاره أقلاماً وأزاميل يحفر بها على جدران وطنه ويكتب أناشيده.

وحتى لو طمست السلطة أحرفـه وحاصرتـه.. فـإن دمـه سرعـان مـا يتأجج فى النار ليضئ الليـل بالـشعر.. وكأنـه الـشمس تـشرق مـن قلـب

الظلام.

والشاعر يمتلك الحس المرهف الذى يجعله دائم الحلم بالخلاص من هذه المعاناة.

وكثيراً ما كان يجلس وحيدا (فى الليل) يتأمل ويحلم بعيداً عن وطنه.. متمنيا أن ينطلق روحاً هائمة فى الفضاء:

أيها الليل ليتنى كنت نجماً

عائما فى مياهك الزرقاءِ

وأحلّى بسحر عينيك ذاتى

ثم أزهو على نجوم السماءِ

غير أنى - يا حسرتا - آدمى

قيدتنى أرضيتى فى بنائى

لكن أحلامه تلك وغيرها من النوع المستحيل.. ومن ثم سرعان ما يعود إلى واقعه معترفاً أنه يمضي فى (وادي التيه) فيعترف:

شردتنى بين المجاهل أيا

مى فصاحت فى وجهى الفلواتُ

أيها التائه المنقَّل فى الرمـ

ـل خطاه.. ضاقت بك العثراتُ

والأعاصـــير نائحـــات حواليـــ

ـــك وبـين القفـار عـاش المـماتُ

أيـــنما سرتَ فـــالخرابُ مقـــيمٌ

أنقذيـه مـــن البلـــى يـا حيـاة

وخذيـــه إلى الـــذى يبتنيـــه

حولـكِ الـشعرُ والهـوى والغنـاءُ

وكـــأن الريـــاح تـــسألنى: مـــا

ترتجيـــه.. لم الـــسُّرى والعنـــاءُ

قلـت: أهـوى أسـير إنـى أراهـا

هاتـــه واحـــة وثـــمّ ضـــياءُ

وتغربـــت فى المهامـــه عطـــشا

نَ ولكـــنْ عـــلىّ عـــزَّ المـــاءُ

ضـاق بـى الكـون كلّـه يـا إلهـى

بعـد أمـى.. وقطّبـت لى الحيـاةُ

كف عـن مـسمعى فلـم يبـق غـيرى

وأنـا ميـت كـما قـد مـاتوا

ربما نلحظ هنا اقتراب الشاعر من حافة اليأس.. لأن التيه والنفي والغربة إحساس ممض كئيب يطبع النفس والروح بالسواد والظلمة.

ولهذا نجده يصرخ طالبا النجدة فى قصيدة (أشواق) فيقول:

يـــا طبيبـــى ظمئـــت روحـــى إلى

رشـــــفة النـــــور وراء الأفـــــقِ

أطلقـــــونى إننـــــى فى جـــــسدى

بلبـــل ضـــاق بـــسجن مغلـــقِ

طـــال حبـــسى وأنـــا مـــا عـــشقتْ

مهجتـــى غـــير الفـــضاءِ المطلـــقِ

آه يـــــا حـــــريتى.. حـــــريتى

مـــن وراء الغـــيم.. حـــلّى مـــوثقى

أنقذينى من كيانى الضيقِ

ولم تستطع الحرية أن تنقذ الشاعر وتعيده إلى أحضان وطنه.. فعاش منفياً.. تائها إلى أن رحل عن دنيانا تاركا تلك الصفحات المضيئة شاهداً على معاناته وآلامه.